

البحيرة

نظم لامرتين هذه القطعة الخالدة في بحيرة بورجيه
من سفوا وقد وفد على اكس عام ١٨١٧ ينتظر قدوم
جوليا اليها كما مر بك في سياق القصة . وجوليا يومئذ
كانت تكابد غصص الموت على سرير المرض فلم تلب
نداءه ولم تستطع لقاءه . فزفر لامرتين هذه الزفرة
وأرسل هذه العبارة من صدر مكروب وعين قريحة ،
ثم عاد الى (ميلى) شارد اللب مضطرم الجوانح .
وهذه هي :

أهكذا قضى الله أن نخرج في عباب
الحياة مدفوعين في ظلام الأبد من شاطئ
إلى شاطئ ، دون أن نملك الرجوع إلى
ملجأ ، أو الرسو ذات يوم على مرفأ ؟

* * *

انظري أيتها البحيرة ، ها هو ذا العام
قد كاد يشارف تمامه ، وأنا وحدي بجانب
أمواجك الحبيبة أرتقب عبثاً عودة جوليا
إليها ، جالساً فوق الصخرة التي كنت ترينها
جالسة عليها !

* * *



بحيرة بارجيه

كذلك بالأمس كنت تهدرين فوق
هذه الصخور المعلقة ، وتكسر أواذيك^(١)
على جوانبها الممزقة ، وتقذف رياحك
الزبدَ على قدميها المعبودتين .

* * *

أتذكرين ليلة كنا فوق صفحتك
بين الماء والسماء نجدف فى سكون وصمت ،
وقد ضرب الله على آذان الطبيعة ، وختم
على أفواه الخليقة ، فلا نحس حركة ولا
نسمع ركزاً^(٢) غير إيقاع المجاديف على
أنغام الموج ؟

* * *

وإذا بصوت لا عهد للأذان بمثله
ينبعث من صفتك الجميلة ، فشق حجاب
السكون ، وأطلق لسان الصدى . وهناك
أنصت الموج ، وأصغى الهواء ، وأخذ هذا
الصوت الحبيب يُساقط هذه الكلمات :

* * *

(١) الأواذى : جمع آذى وهو موج البحر .

(٢) الركز : الصوت .

« أيتها الأرض قفى دورانك ! وأنت
أيتها الساعات قفى جريانك ! ودعينا نتمتع
بعاجل لذاتنا ، وننعم بأجل أيام شبابنا .

* * *

« إن كثيراً من صرعى الحياة وفرائس
البؤس يتضرعون إليك أن تسرعى بهم ،
لتخففى من كربهم ، فاستجيبى إليهم ، وكرتى
مسرعة عليهم ، وخذى من عمرهم الزاهب ،
ألام عذابهم الواصب ، واتركى السعداء
والناعمين غارّين فى غفلات العيش وظلال
الأمن !

* * *

« على أنى وا ويلتاه كلما لججت فى
الطلب ، لج الزمان فى الهرب ، فأنا أتمنى
عليه المنى فلا تُحقّق ، وأستزیده البرهة
اليسيرة فلا أوفّق ، فسألت هذه الليلة أن
تسكون أطول وأمهّل ، وإسكن السؤل
خاب وبازى الصبح قد افترس غراب الليل !

* * *

« فلنتساق إذن كئوس الهوى دهاقا !
ولنقض مآربنا من هذه الحياة عجالا ، فليس
لسفينة الإنسان مرفأ ، ولا لخصم الزمان ساحل :
إن الزمان ليتدفق ، وإنا مع تياره نمر ونغضى !

* * *

« أيها الزمن الحاقد الحاسد ! أأ كذلك
قضيت أن تمضى لحظات الأنس وسكرات
الحب سراعاً كما تمضى أيام الشقاء والبؤس ! !

* * *

« ويلك ! أما نستطيع على الأقل أن
نتبين آثارها ونلمح أنوارها ؟ وكيف ؟
أتراها قد ذهبت إلى غير رجعة ، وماتت إلى
غير بعث ؟ واويلتاه ! هل انقضى كل
شئ ؟ وهل الزمن الذى منحها وأعطاها ؟
والذى طمسها وعفاها ، لا يردها ثانية علينا ؟

* * *

« حدثنى أيها الأبد ! أيها العدم ! أيها
الماضى ! أيها الغور العميق ! ماذا تصنع
بهذه الأيام التى تطويها فى أحشائك ؟ أما
ترجع إلينا ما سلبتنا من سكرات نبيلة ،
ومسرات جميلة ؟

* * *

« أيتها البحيرة الصاخبة ، أيتها الصخور
الصامتة ! أيتها الغيران الموحشة ! أيتها
الغابات المظلمة ! أنتن اللاتي يُبقى عليهن
الدهر ، فيُجِدُّهِنَّ بعد البلى ، ويخصبهن
بعد المَحَل ! فاحفظن من هذه الليلة السعيدة
على الأقل بذكرها ، واندجن على شذا
أرجعها وطيب رباها !

* * *

« لتبقى ذكرها أيتها البحيرة في
هدوئك الشامل ، وعواصفك الهوج ،
وهضباتك الضحوك ! لتبقى في هذا
السنوبر الزاهب في السماء ، وفي وعر
الصخور المعلقة فوق الماء ! لتبقى في النسيم
العابت بوجهك ، وفي الهدير المردد بين
ضفافك ، وفي الكوكب الفضى يضىء
سطحك بأواره الرخية الزهية !

* * *

« وليقل الهواء الذى يصفر ، والقصب
الذى يزفر ، والنسيم المعطر الذى يضوع !
ليقل كل ما نرى وما نسمع وما نتنسم :
« لقد كانا عاشقين ! ! »